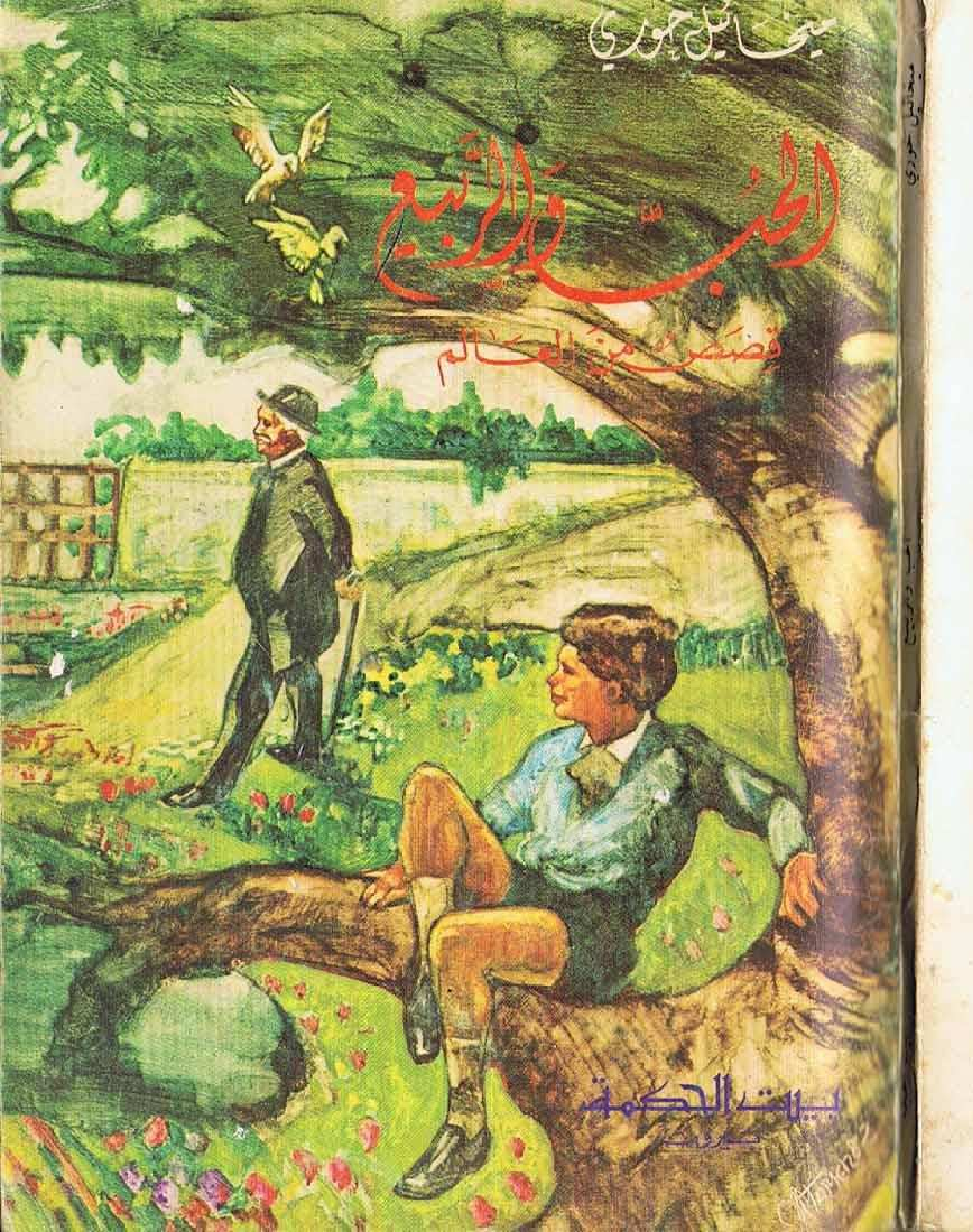


منشوراتنا القصصية

الثمن ٩٠٠ ق.ل

هذه القصص مقتبسة بتصرُّف من روائع القَصص العالمي

ميخائيل خوري



بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة «ميشال تامر»

الطبعة الاولى، بيروت ـ لبنان، كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣

الحُبّ وَالرَّبيع

إنّها حديقةٌ فسيحةٌ، جميلةٌ، مَكسوّةَ بالأعشاب الخضراءِ الطريَّة، وهي ملكٌ لرجلٍ أنانيٍّ لا يُحبُّ إلاّ نفسَه. كانت ملعباً للصغار، يمرُّون بها عند عودتِهم من المدرسة بعد ظُهر كلِّ يوم، فيسرحون فيها ويمرحون في غياب صاحبها المسافر، ويتمتَّعون بأزهارها الحلوة الموزَّعةِ بين الأعشاب. وفي الحديقة عددٌ من أشجار الفاكهة التي تُزهر في الربيع، حمراءَ زاهيةً، وتحمل ثمارَها الطيِّبةَ المغرية. تحطُّ عليها العصافيرُ الجميلة، وتَصدح بالغناء العذب الذي يحبُّه الأولاد، حتى إنَّهم يتوقَّفون عن اللعب ويُصغون إليه ببراءة ومحبَّة، وينشدون:

ـ ما أسعدَنا بهذه العصافير السعيدة!

ومضت سنواتٌ عادَ بعدها الرجل الأنانيُّ إلى منزله، فتنغَّصت بعودته حياةُ الصِّغار الهانئةُ. فما إن رآهم في الحديقة حتَّى صاح بهم:

- ماذا تفعلون هنا؟ إذهبوا عنّي!

كان صوته خشناً قاسياً، أخافَ الأولادَ ففرّوا هاربين فزعين. ثمّ عمد إلى بناء سُورٍ عالٍ حولَ الحديقةِ، ووضعَ عند مدخلِه لوحةً كُتِبَ عليها الكلماتِ التاليةَ: «ملكٌ خاصّ. ألدُّخول ممنوع. مَن يدخلِ الحديقةَ يعرِّضْ نفسه للعقاب».

وبذلك بات الأولادُ لا يجدون لهم مكاناً للّعب غيرَ الطريق. لكنّهم لم يكونوا يحبّون اللّعب في الطريق، لِما فيها من غُبار وحصًى. وطبيعيٌّ أن يتحسّروا ويحزنوا على الأيّام التي كانوا يلعبون فيها في الحديقة، وأن يكتفوا بالتجوّل حول جدارها العالي قائلين:

- ما كان أسعدَنا يومَ كان صاحبُ الحديقة غائباً!

* * *

وفي السنة التالية عاد الربيع، وزهَتِ الأرضُ بالأعشاب الخضراءِ، واكتست الأشجار بالزهور،

إلاّ هذه الحديقةَ المسوَّرة، فقد ظلّت قاحلةً مغطّاة بالثلج: ألأعشابُ لم تنبت فيها، والزهور لم تتفتّح، والعصافيرُ لم تقصد أشجارَها ولم تغنِّ. والأولاد لا يجرؤون على دخول الحديقة للّعب. حتّى بعض النباتات التي أفرخت عادت إلى الذُّبول حين شاهدت اللوحةَ التي تحرِّم على الأولاد دخولَ الحديقة!

ألصّقيع والثلج كانا وحدَهما في الحديقة. ألصّقيع كسا الأشجار باللّون الفضّيّ. والثلج غطّى الأعشاب ببياضه. وسرعانَ ما دعا الصّقيعُ والثّلجُ الرِّيحَ لزيارتها، فجاءت ملتفّةً بالفراء، وراحت تزأر في جوانب الحديقة، قويّةً مجتاحةً ما حولَها. وسرَّ الريح أنَّ لها مثلَ هذه الفسحةِ الواسعة، فدعت البَرَدَ أن يتساقط لتستمع إلى وَقْعه. وجاء منهمراً تحمله الريح إلى هنا وهناك بسرعتها الشديدة، فغطّى الأرض بردائه.

ووقف صاحب الحديقة الأنانيُّ في نافذته يتعجّب ويتساءل:

ـ لماذا تأخَّر الربيعُ؟ عسى أن يتغيَّر الطقسُ، فتهدأَ الريحُ، وتشرقَ الشمس، ويذوبَ الثلج، ويعودَ الدِّفء.

غير أنَّ الطقس لم يتغيَّر. وبقيت هذه الحديقة خالية من أيِّ حُبور أو دفء، في حين أزهرت الأَشجار في الحدائق الأخرى، وانتقلت إليها العصافيرُ تتفيَّأ ظِلالَها من الشمس، وتشدو بأَلحانها العذبة. لقد رفضت العصافير أن تدخل أرض هذا الرجل الذي لا يحبُّ الصغار!

وفي ذات صباح كان هذا الرجلُ لا يزال مستلقياً في فراشه، فسمع موسيقى حلوةً لم يسمع مثلَها منذ أن حَرم الصغارَ من دخول حديقته. يا له من لحنٍ عذب! لقد غاب صوتُ البَرد، وتوقَّف زئير الريح، وعادت الروائح العطريَّةُ تفوحُ مالئةً الجوَّ. وظنَّ الرجلُ أنَّ الربيع قد أطلَّ، فقفز من فراشه ونظر إلى الخارج.

.. ورأى مشهداً رائعاً! عصفورٌ صغير يغنِّي عندَ

النافذة؛ وصغارٌ دخلوا الحديقةَ من فتحة صغيرة في الجدار، وجلسوا على الأغصان؛ وأشجارٌ سرَّها أن يعود إليها الصغارُ فأَزهرت، وراحت أوراقُها تتلاعب بهدوء فوق رؤوس الصغار؛ وطيورٌ مغتبطة تفرُّ من مكان إلى آخرَ في الحديقة؛ وأزهارٌ تخرج من الأرض بين الأعشاب! مشهدٌ خلاَّب، حبيب إلى النَّفس، إلاَّ زاويةً في طرفِ الحديقة ما زالت هادئةً خالية، فيها شجرةٌ مغطَّاة بالثلج، تحتها طفلٌ صغير يعجز عن التسلُّق إلى الشجرة، ويشهق بالبكاء كلَّما دعته الشجرةُ إلى الصعود إليها، فيحاول، ولكنَّه يسقط.

ورقَّ قلب الرجل للطفل وقال لنفسه:

ـ ألآنَ أعلمُ تأَخُّر الربيع. كم كنت أنانيّاً! كم كنتُ قاسياً! سأَحمل الطفل إلى الشجرة، وأهدم السُّور، وأَسمح للصغار بأن يلعبوا في الحديقة. كم أنا نادم على ما فعلتُ!

وهبط الرجل إلى الحديقة بهدوء، مُحاذراً أن يراه

الصغارُ. غير أنَّهم فرُّوا حين رأوه، خوفاً منه أن يُؤذيَهم، واختبأوا خارجَ السُّور وهم ينظرون إليه. فعاد الشتاء إلى الحديقة على الفور. أمّا الصغيرُ الذي كان يقف تحت الشجرة فلم يهرب لأنَّ عينَيه كانتا مليئتين بالدموع، فلم يرَ الرجلَ قادماً نحوه. وحمله الرجل ووضعه على غصن في الشجرة، فأزهرت، وتراكضت الطيورُ نحوَها شاديةً. ومدَّ الولد ذِراعيه، وطوّق الرجلَ وقبّله. ولمّا رأى الصغارُ الآخرون هذا المشهدَ أدركوا أنَّ الرجل تغيَّر، فأسرعوا عائدين إلى الحديقة، وعاد معهم الربيعُ.

* * *

بعد ظهر كلِّ يوم كان الناس يشاهدون هذا الرجلَ وهو يلعب مع الصغار في حديقته. لقد كان يتمتَّع بجمال الربيع، بزهوره الفوّاحة، وبغناء العصافير الصادحة. غير أنَّ الأطفال كانوا أجملَ أزهار الحديقة، وأعذبَ ألحان العصافير!



النّورُ الأزرَق

يُروى أنَّ جندياً تقدَّمت به السِّنُّ، فصرفه الملك من الخدمة، ولم يُعطِه مالاً يعيش به. وكان هذا الجنديُّ عاجزاً عن العمل، فهام على وجهه حتّى وجد نفسه في غابة ضلَّ فيها الطريقَ. وتوقَّفَ قليلاً، حائراً لا يدري ماذا يصنع. وما لبث أن لمح ضوءاً يَسطع عن بُعدٍ، فاتَّجه إليه. وصله مساءً وقد أنهكه السَّيرُ، فإذا به أمامَ كوخٍ تسكنُهُ عجوزٌ لا يعيش معها أحدٌ. طلب منها أن تسمَح له بأن يبيتَ ليلَتَه عندها، فرفضت في البداية، وتوسَّل إليها، فقبلت، شريطةَ أن يَنكُشَ لها في الصباح الحديقةَ المجاورة لكوخها. ووافق الجنديُّ.

وفي صباح اليوم التّالي بدأ الجنديُّ بنكش الأرض. ولم ينتهِ من عمله حتى المساء، فتوسَّل إلى العجوز أن تُبقيَه عندها ليلةً أخرى، لأنّه مُتْعَبٌ لا يستطيع السير، ولا يعرف أين يذهب. وبعد حوار

وتوسّلٍ وافقتِ العجوزُ على استضافته شرطَ أن يقطع لها الحطبَ في اليوم التالي.

وفي اليوم التّالي قام الجنديُّ إلى عمله باكراً، واستمرَّ يعملُ حتّى المساء. وعند الانتهاء من عمله كان مُرْهَقاً، فرجا العجوزَ أن تؤويَه ليلةً ثالثة. ورضيت العجوز أن يبقى عندها مُقابلَ أن يأتيَها بالضوء الأزرق الذي كان يسطع في قاع البئر القريبةِ من البيت.

وحين أطلَّ الصباح، سارت به العجوزُ إلى البئر، وربطته بحبل، ثمّ أنزلته إلى القاع. فإذا به أمام قنديلٍ صغيرٍ عجيب، يخرج منه ضوءٌ أزرقُ وهّاجٌ. وما إن أمسك الجنديُّ بالقنديل حتى أشارَ إلى العجوز بأن تسحبَه، ولكنّها سحَبَتْه إلى حيثُ باتت تستطيعُ أن تتناولَ منه الضوء، ولم تخرجْه من البئر، وقالت له:

ـ أعطِني الضَّوء أوّلاً.

غير أنَّ الجنديَّ خشيَ أن تكون العجوز قد نوتْ به شرّاً، وأن تتركَه في وسَط البئر، فرفض أن يعطيَها

الضوء قبل أن يخرج من البئر. فغضبت العجوز وتركت الحبل من يدها، فسقط الجنديُّ والضوءُ الى قاع البئر! وبعد لَحَظات أخذ الجنديُّ غليونَه من جيبه وأشعله بالضوء الأزرق ليدخّنَ، وهو يعتقد أنَّه يعيش ساعاتِه الأخيرةَ بانتظار الموت.

وما إن أشعل الغليونَ حتى تصاعدَ منه دخانٌ كثيف، ثمّ برز أمامَه قَزِمٌ راح يتقدَّم منه. ثمّ انحنى أمامه وسأله باحترام:

ـ ماذا تريد منّي أيُّها الجنديُّ؟

بقي الجنديُّ جامداً ساكِناً، لا يتحرّكُ ولا ينطِق بكلمة، لشدَّة دهشته ممّا يرى. وأخيراً تمالَك نفسَه، وأجاب:

ـ لا علاقة لي بك يا هذا، ولا شُغلَ لي معك!

فردَّ عليه القزم:

ـ بلى! عليَّ أن أُقدِّم لك أيَّةَ خدمةٍ تشاءُ، وأنت سيِّد الضَّوء الأزرق!

وأراد الجنديُّ أن يجرِّبَ القزمَ ويمتحنَ صِدْقَه، فقال له:

ـ إذاً أرجوك أن تبذُلَ وُسعَك لإنقاذي من هذه البئر.

وما كاد ينهي كلامَه حتى أمسكه القزمُ بيده وأصعدَه من البئر، والجنديُّ يحمل القنديل الأزرق بيده الأُخرى.

ولمّا رأى الجنديُّ ما يفعله القزمُ من أعاجيبَ قال له:

ـ ألآن أرجوك أن تقدِّم لي خدمةً أخرى: ضَع المرأةَ العجوز في مكاني في قاع البئر!

وبلمح البَصَر حقَّق القزمُ له أمنيَّته، فإذا العجوزُ أسيرةٌ في بئرها لا تستطيع حَراكاً! ثمَّ دخل القزم والجنديُّ إلى البيت، وراحا ينقلان ما يستطيعان حملَه من الذَّهب الذي كانتِ المرأةُ العجوز قد جمعته في كوخها. وبعد ذلك ودَّعَ القزمُ الجنديَّ قائلاً:

ـ أنت سيِّدي، فإذا احتجتَني لأمرٍ ما فما عليك

إلاَّ أن تُشعلَ غليونك بالضوء الأزرق. وسأحضرُ إليك حالاً.

* * *

كان سرور الجنديِّ عظيماً إزاءَ ما تحقَّق له من ثروة، فقصد المدينةَ، حيثُ أمر أن تُخاط له الثّيابُ الأنيقَةُ، وأن يُشادَ له قصرٌ كبيرٌ فَخْم. وعند انتهاء العمل استدعى الجنديُّ القزمَ وقال له:

ـ لقد صرَفَني الملكُ من الخدمة حينَ كبرتُ في السِّنّ، ولم يُعطِني مالاً، ولم يقدِّمْ لي مساعدةً، بل تركني فريسةَ الجوع. والآنَ جاء دَوري لأن أُلَقِّنَه درساً لا ينساه. أودُّ منك أن تأتيَني بابنته لتعملَ خادمةً عندي.

ولم يتردَّدِ القزمُ لحظةً، بل قام لتوِّه إلى تنفيذ مشيئة الجنديِّ. فلمَّا نَزَلَ اللّيلُ أتى القزم بالأميرة إلى قصر الجنديِّ ليلاً، وهي نائمة. وبعدما قضتْ ليلَها في ترتيب القصر والقيام على خدمة الجنديِّ أعادَها القزمُ، قُبَيْلَ الفَجْر، إلى قصرها، قبلَ أن تُفيقَ من نومها.

ولمّا أفاقت في الصَّباح كانت شديدةَ الانزعاج، وهي لا تدري أفي حُلُمٍ كانت أم في يقظة. فتوجَّهت رأساً إلى والدها وقالت له:

ـ يا أَبي، رأيتُ اللَّيلةَ ما يُشبهُ الحلمَ المزعجَ: رأَيتُ أنَّني حُمِلتُ إلى منزل جنديٍّ، وأنَّني قمتُ بخدمته.

واستغربَ الملكُ الحكايةَ أوَّلَ الأمر، وظنَّها مجرَّدَ حلمٍ عابر. ولكنَّه كان سيِّىءَ الظَّنِّ، شديدَ الشَّكِّ والحَذَر، فخَشِي أن يكونَ في الأمر سرٌّ خطير. لذلك طلب من ابنته أن تملأ جيبها بحبوب الفاصوليا، وأن تُحدثَ في الجيب ثَقْباً. حتى إذا حُملت من بيتها مرَّةً أُخرى تساقطت حبوب الفاصوليا في الطَّريق، فيتبعها جنودُ الملك ويكتشفون المكانَ الذي حُملتْ إليه الأميرةُ.

وسمع القزم، بما له من قوَّةٍ خارقة، ما قاله الملك لابنته، فقرَّرَ أن يُفسِدَ على الملك خُطَّتَه. وفي المساء طافَ في شوارع المدينة كلِّها، من غير أن يراه أحدٌ،



ونشر فيها حبوب الفاصوليا. ولما حلَّ الظَّلامُ حمل الأميرةَ إلى قصر الجنديِّ كما فعل في اللَّيلة السَّابقة. ولما أعادها قُبيلَ الفجر إلى قصر أبيها كانت حبوب الفاصوليا قد تساقطت من جيبها في الطَّريق، فاختلطتْ بالحبوب التي كان القزم قد نثرها في كلّ مكان.

في الصَّباح انتشر جنودُ الملك في الطُّرُقات يَبحثون عن حبوب الفاصوليا، ليَعرفوا الطَّريقَ الذي سلكَتْه الأميرةُ والبيتَ الذي حُمِلتْ إليه. ولكنَّ دهشتَهم كانت عظيمةً حين رأَوا حبوب الفاصوليا تغَطّي طُرُقاتِ المدينة كلَّها لا طريقاً واحدة. وحارُوا في أمرهم، ولم يعرفوا في أيِّ طريق ذهبتِ الأميرة، فعادوا إلى قصر الملك خائبين.

* * *

غضبَ الملك أشدَّ الغضب، وأدركَ أنّ في الأمرِ مكيدةً تستخفُّ به وتُعَرْقِلُ خُطَّته. ولكنَّه لم ييأس، بل خطرتْ بباله فكرةٌ أُخرى: فقد طلب من ابنته

أن تحملَ معها في اللَّيلة المقبلةِ حذاءها، وتتركَه في المنزل الذي تُؤخذ إليه. وسمع القزمُ، هذه المرَّة أيضاً، ما قاله الملك.

ولما دعا الجنديُّ القزمَ إلى أن يأتيَه بالفتاة مرَّةً ثالثةً قال له القزم:

ـ يا سيِّدي، الأمرُ صَعبٌ هذه المرَّة. فقد أعدَّ الملك خُطَّةً للإيقاع بك، ويؤسفُني أنَّني قد لا أستطيع إنقاذَكَ من الهلاك.

ولكنَّ الجنديَّ أصرَّ بعنادٍ على أن ينفِّذَ القزمُ رغبتَه. وهكذا كان. فقد حُملتِ الفتاةُ إلى قصر الجنديِّ ليلاً، وأُعيدت إلى قصر أبيها فَجراً بعدما أَخْفَت حذاءها في بيت الجنديّ.

في الصَّباح أخبرتِ الأميرةُ والدها بما جرى، فأمر الجنودَ بتفتيش منازل المدينة كلِّها بحثاً عن الحذاء. ولما سمع الجنديُّ بالخبر بحثَ عن الحذاء في بيته فلم يجده، لأنَّ الأميرةَ كانت قد أحسنت إخفاءه. ولما شعرَ باقتراب الجُند من قصره لجأ إلى الفرار، ناسياً

الضوءَ الأزرقَ في بيته. وما لبث الجنودُ أن ألقَوا عليه القَبْضَ واقتادوه إلى السِّجن.

* * *

فكَّر الجنديُّ طويلاً بمصيره، وأدركَ أنَّه هالكٌ لا محالةَ. وفي أحد الأيّام وجد في أحد جيوبه قطعةً من النُّقود، فخطرتْ له حيلةٌ تمكِّنهُ من الهرب: فقد وعدَ أحدَ حرّاسه بإعطائه قطعةَ النقود إذا أتاه من قصره بعُلبة صغيرةٍ كانت في غرفة نومه. فقبل الحارسُ تحتَ إغراء المال، وجاء الجنديَّ بالعلبة التي طلبها. وكان الجنديُّ قد وضع في هذه العلبة قنديلَه السحريَّ، فأخرجه منها سرّاً وأشعلَ غليونَه بالضَّوء الأزرق. وفجأةً ملأ الدخانُ المكانَ، وانتصبَ القزمُ أمامه كعادته وهو يقول:

- لا تَخَفْ يا سيِّدي. كن رابطَ الجأشِ ترَ خيراً. إنَّما إيَّاك أن تُضيعَ القنديل.

بعد أيَّام جرت محاكمةُ الجنديِّ، فحَكِم عليه بالإعدام شنقاً. وفي فجر اليوم المعيَّنِ لتنفيذ الحُكم

احتشدتِ الجُموعُ في ساحة المدينَة حيثُ نُصِبَتِ المَشْنَقةُ، وكان الملك وحاشيتهُ في طليعة الحاضرين. ولمّا اعتلى الجنديُّ خشبَ المشنقة طلب من الملك أن يسمحَ له بتدخين غليونه، فوافق الملكُ على أن يحقِّقَ له رغبتَه الأخيرة. وما إن أشعل الجنديُّ الغليونَ حتى حضرَ القزمُ، فقال له الجنديُّ:

- فرِّقْ هذه الجموعَ، واقبِضْ على الملك!

وللحال فرَّقَ القزم جموعَ المحتشدين، فلم يبقَ منهم في الساحة أحدٌ إلاَّ الملكَ، فقد حمله القزمُ إلى الجنديِّ وألقاه أمام قدمَيه. وراحَ الملكُ يتوسَّل إلى الجنديِّ أن يعفوَ عنه، فقبل الجنديُّ، شَرْطَ أن يزوِّجَه الملكُ بابنته، وأن يعيِّنَه وليّاً للعهد فيتولّى الحُكمَ من بعده...

... وهكذا كان!

مَلِكَةٌ تَتَسَلَّى

عاشت في قديم الزّمان مَلِكَةٌ شرِّيرةٌ لم يكن لها أيُّ هَمٍّ سوى الإيقاع بالناس وإلحاق الضَّرَر بهم. فكانت تَعِدُ كلَّ مَن يتقدَّمُ منها خاطباً ابنتَها الجميلةَ أن تزوِّجَه بها، شَرْطَ أن يَحُلَّ لُغْزاً تطرحُه عليه، أو أن يقومَ بعملٍ تحدِّده له. فإذا أخفق الخاطبُ فله الهَلاكُ! وكان جمال ابنتِها فريداً، رائعاً، لا نَظيرَ له، فاندفع الكثيرون من الشُّبَّان إلى طلب يدها من أمِّها، وهم يعرِّضون أَنْفُسَهم للموت في سبيل الحصول على الزَّوجة الحسناء. والواقعُ أنَّ عَشَراتِ الشُّبَّان أخفقوا في حلِّ ألغاز الملكة الشِّرِّيرة، فكانَ أن سلَّمتهم الملكةُ إلى جلاّدها فقطعَ رؤوسهم.

وفي أحد الأيّام قرَّر أحدُ الشُّبَّان الأشِدّاءِ أن يقومَ بالمحاولة، علَّه يُوَفَّق في الحصول على الأميرة زوجةً له. فجاء إلى والده يقول له:

ـ أودُّ يا أبي لو تسمحُ لي بأن أتقدَّم من الملكة

خاطباً يدَ ابنتها.

وصُعِق الوالدُ لهذه الرَّغبة، وردَّ بالرَّفض القاطع لعلمه أنَّ ذلك يعني نهايةَ ابنِه الأكيدةَ. وجاء موقِفُ الوالد صدمةً عنيفةً للشَّابِّ أقعدتْه عن الحركة سَنَواتٍ، وكادت أن تقضيَ على حياته. فما كان من أبيه، في النهاية، إلاَّ أن سمح له بالقيام بمغامرته.

* * *

وسرعانَ ما نهض الشابُّ مُعافى، نشيطاً، يُمَنِّي نفسَه بالنجاح حيثُ أَخفق جميعُ مَن سبقه. وودَّع والده، وامتطى جوادَه، وراح يسير به نحو قصر الملكة. غير أنَّه ما كاد يجتاز مسافة قصيرة حتى مرَّ برجل ضخم الجُثَّة ممدَّدٍ على الأرض. فاستوقفه الرجلُ وطلب منه أن يأذَنَ له بمرافقته، وهو، في المقابل، مستعدٌّ أن يُسديَ إليه خدمةً. وسأله الشابُّ عن الخدمة التي يستطيع أن يقدِّمَها له، فقال:

ـ بوسعي أن أنفخَ جسمي فيزدادَ حجمُه ألفَ

وقبل الشابُّ باصطحابه.

وما إن قطعا مسافة قصيرة حتى وجدا رجلاً آخرَ منطرحاً على العُشب، وقد وضع إحدى أُذُنَيه إلى الأرض. فسأله الشابُّ:

ـ ماذا تفعل؟

ـ أُصغي.

ـ إلى ماذا؟

ـ إلى كلِّ صوت في أنحاء العالم كلِّه. لا صوتَ يفوتني سَماعُه، مهما يكنْ ضعيفاً أو بعيداً.

وأراد الشابُّ أن يمتحنَه، فسأله:

ـ أتستطيع أن تقول لي ماذا يجري الآن في بَلاط الملكة؟

ـ أسمع صوت سَنِّ السَّيف الذي يُعَدُّ لقطع رأس الخاطِب الجديد!

مصنوع من رصاص، ولكنّي لا أتمالك أن أبكي.

– « ماذا؟ أليس هذا التمثالُ من ذهبٍ كلّه؟ » هكذا تساءلت السنونوةُ في نفسها. لقد كانت شديدة التّهذيب، ولم توجّه أيّة ملاحظة شخصيّة بصوت عالٍ.

وعاد التمثال يتابع كلامه بصوت موسيقيٍّ منخفض:

– هنالك، في مكان بعيد جدّاً، في شارع صغير، منزلٌ فقير. إحدى نوافذه مفتوحةٌ... أرى من خلالها امرأةً جالسةً إلى طاولة. وجهُها نحيل ومُتْعَب، يداها خشنتان وحمراوان وقد نخرتها الإبَر لأنّها تعمل في التّطريز. إنّها تطرّزُ الأزهار على فسطان من حرير لإحدى وصيفات الملكة لترتديَه في حفلة البَلاط القادمة. وفي سريرٍ، في إحدى زوايا الغرفة، ابنُها الصغير وقد طرحه المرضُ. حرارتُه مرتفعة، وهو يطلب بعض عصير البرتقال. والدته لا تملك ما تسقيه غيرَ ماء النهر، وهو لذلك يواصل الصُّراخ.

أيّتُها السنونوةُ الصغيرةُ، هلاّ حملتِ إليها الجوهرةَ الموجودة في مقبض سيفي؟ قدماي عالقتان بهذه القاعدة، وأنا لا أستطيع أن أتحرّك فأذهبَ إليها.

فأجابته السنونوة:

– في البلاد الدافئة ينتظرونَني. هنالك لي رفقاءُ يحلّقون فوقَ الأنهار، ويتحدّثون إلى الزهرات الكبيرة. بعد قليل يصلون إلى قبر الملك العظيم ليناموا فيه. ألملكُ نفسُه مُسجًّى هناك مُحنّطاً. نعشُه المَطْلِيُّ ملفوفٌ بالكَتّان الأصفر. وحول عنقِه سلسلةٌ من حجارة كريمةٍ خضراءَ، شاحبةٍ. ويداه كالأوراق الذابلة.

فقال الأمير:

– أيُّها الطائرُ، أيُّها الطائر، أيُّها الطائر الصغير! هلاّ بقيتَ معي ليلةً واحدة، وأدّيْتَ لي هذه الخدمةَ؟ ألولدُ شديدُ الظّمإ، والأمُّ عظيمة الحزن.

فردّ الطائر:

- أذكرُ عن الأولاد ما لا يحبِّبُهم إليَّ. ففي الصيف الفائتِ كنتُ بجانب النَّهر، وكان هنالك ولدان فَظَّان شرِّيران هما ابنا الطَّحَّان. راحا يقذفانِني بالحجارة. لم يتمكَّنا من إصابتي، بالطَّبع، فنحن معروفون بالطَّيران السريع. ثمَّ إنَّني أنتمي إلى فصيلةٍ مشهورة بسرعة حركتها. لكنَّ عملهما ذاك كان دليلاً على قلَّة احترام.

هنا كَسا الحزنُ الشديد وجهَ الأمير السعيد، حتَّى أنَّ الطائر رثى له، فقال:

- ألبردُ هنا شديد، ولكنَّني سأبقى معك ليلةً واحدة، وأقومُ لك بهذا العمل.

فرح الأميرُ فرحاً شديداً، فتهلَّلَ وجهُه، وقال:

- شكراً لك أيُّها الطائر الصغير!

عند ذاك نقد الطائرُ المجوهرةَ الكبيرة من سيف الأمير، وحلّق بها فوق سطوح المدينة يحملها بمنقاره.

ومرَّ ببُرج الكنيسة حيث كانت تماثيل الملائكة مصنوعةً من الرُّخام الأبيض؛ ومرَّ بالقصر وسمع

عزف الموسيقى الراقصة، وشاهد فتاةً جميلة تخرج إلى الشرفة مع حبيبها. وسمع الحبيبَ يقول لها: «ما أروعَ هذه النجومَ، وما أعظمَ الحُبَّ!» وسمعها تردُّ عليه: «آملُ أن يكون فسطاني مجهَّزاً للحفلة الكبرى. لقد أمرتُ بتطريزه بالزهور. ولكنَّ النساءَ العاملاتِ بالتطريز شديداتُ الكسل».

وطار فوق النهر، ورأى القناديل معلَّقة بأشرعة السفن. ومرَّ فوق شارع تجّار المجوهرات، وسمع بينهم مساومةً عنيفة، وهم يَزنون المجوهراتِ بموازينَ نُحاسيَّةٍ.

وأخيراً وصل إلى البيت الفقير، ونظر إلى داخله. كان الولد يتقلَّب على فراشه لشدَّة الحُمَّى، وكانت أمُّه قد استسلمت للنوم من شدَّة الإرهاق. تطلَّع إلى الداخل، ثمَّ وضع المجوهرة الكبيرة على الطاولة بجانب الكشتبان، وحوّم بلطفٍ حول السرير، ملطِّفاً حرارةَ الولد بهواء جناحَيه. وسمع الولدَ يقولُ: «كم أشعر بالبرد! لا بدَّ أنَّني أتحسَّنُ». ثمَّ غرق في نوم لذيذ

هادىء.

وعاد الطائر إلى الأمير السعيد، وأخبره بما فعل، وقال:

ـ عجيبٌ ما بي! إنّي أحسُّ بالدفء الشديد الآنَ، مع أنَّ الطقس شديدُ البرودة.

ـ ذلك لأنّك عمِلتَ عملاً صالحاً.

وراح الطائر يفكّر، ثمّ استسلم للنوم.

* * *

ولمّا أطلَّ الفجرُ طارت السنونوةُ إلى النهر واستحمّت.

ـ «يا لها من ظاهرة غريبة»، قال أستاذ علم الطيور، وهو يمرُّ فوق الجسر. «طائرٌ في الشتاء!» ثمّ كتب رسالة طويلة عن ذلك إلى صحيفة محلّيّة.

ـ «أللّيلةَ أبدأُ رحلتي للّحاق برفقائي». هكذا قال الطائر وهو شديد الاغتباط لذلك.

ثمّ زار الأمكنة العامّة، وقضى فترة طويلة على رأس قُبّة الكنيسة، وهو يُصغي إلى طيورٍ أخرى

تغرِّد فرحةً سعيدة، وتقول:

ـ يا له من زائر كبير مميّز!

وكان طبيعيّاً أن تحسَّ السنونوة بالسرور الشديد.

ولمّا أطلّ القمر عاد الطائر إلى الأمير السعيد وقال له:

ـ هل تكلّفني بمهمّةٍ ما في البلاد الدافئة؟ سأبدأ رحلتي الآن.

ـ أيّها الطائر، أيّها الطائر، أيّها الطائر الصغير! ألا تبقى معي ليلةً أخرى؟

ـ هنالك مَن ينتظر وصولي. غداً يطير رفقائي إلى الشلاّلات، حيث يستحمّون، ويعبثون بالماء، ويراقبون الحيوانات. وهنالك، على عروش كبيرة من الحجارة، تجلِس العمالقةُ، وتراقب النجوم، ثمّ تطلق صرخةَ فرح حين تُطلُّ نجمةُ الصبح. وعند الظهر تَردُ السّباع إلى النهر لتشربَ، وعيونُها لامعةٌ، حادّة، وزئيرها يغطّي هدير الشلاّل.

ـ أيّها الطائر، أيُّها الطائر، أيّها الطائر الصغير!
هنالك، على مسافةٍ منّا في المدينة، أرى شابّاً مُنحنياً على مكتب مغطّى بالأوراق، وفي كأسٍ بجانبه مجموعةٌ من البنفسجات الذابلة. شعرُه أسمر اللَّون، شفتاه حمراوان، عيناه الكبيرتان حالمتان. إنَّه يحاول أن يُنجز كتابةَ رواية لِمدير المسرح، لكنَّه يعجز عن الكتابة لشدَّة ما به من البرد. لا نارَ في موقِده. وقد أُغمي عليه من الجوع.

فأجابه الطائر، وقد رقَّ قلبه لِما سمع:

ـ سأقضي معك ليلةً أخرى. هل أحمل إليه مجوهرةً ثانية؟

ـ يؤسفني أن لا تكونَ لديَّ مجوهرةٌ ثانية. عيناي هما كلُّ ما تبقَّى لي. إنَّهما مصنوعتان من زمرُّد نادر، مجلوبٍ من الهند منذ ألف عام. إقلعْ إحداهما وخُذها له. إنَّه سيبيعها إلى الصائغ، ويشتري بثمنها طعاماً وحَطَباً، ويُكمل روايته.

ـ لا يمكنني أن أفعل ذلك بك، أيُّها الأمير العزيز،

قال الطائر. ثمّ أخذ ينتحب.

ـ أيُّها الطائر، أيُّها الطائر، يا طائري العزيزَ الصغير، إفعلْ ما آمُرك به!

واقتلعت السنونوة إحدى عينَي الأمير، وحلَّقت طائرةً إلى غرفة المؤلِّف. وكان الدخول إلى الغرفة سهلاً لوجود فتحة في السقف. واندفعت السنونوة من هذه الفتحة، ودخلت الغرفة. وكان الشابُّ قد دفن رأسه بين يدَيه، فلم يسمع رفيف جناحَي الطائر، لكنَّه، حين رفع رأسه، وجد الزمرُّدةَ الجميلة موضوعةً على البنفسجات الذَّاوية، فقال لنفسه وقد بدأ يشعر بالسعادة:

ـ لقد بدأتُ أحظى بالتقدير. هذه هديَّةٌ من أحد المعجَبين بي. بوسعي الآنَ أن أُنهي روايتي.

* * *

وفي اليوم التالي قصد الطائر الميناءَ، وحطَّ على شِراع سفينة كبيرة، وأخذ يراقب البحَّارة وهم يُخرجون الصناديق الكبيرة منها بالحبال. كانوا كلّما

أخرجوا صندوقاً يغنّون: « شُدّوا الحبال ». أمّا الطائرُ فكان يغنّي: « إنّني ذاهب إلى البلاد الدافئة ». لكنَّ أحداً لم يُبال به.

وحين أطلَّ القمر، عاد الطائر إلى الأمير السعيد، وقال له:

ـ جئتُ أقول لك وَداعاً.

ـ أيّها الطائر، أيّها الطائر، يا طائري الصغيرَ العزيز! هلاَّ بقيتَ معي ليلةً ثالثة؟

ـ لقد جاء فصل الشتاء. ستسقط الثلوج بعد وقت قصير. أمّا في البلاد الدافئة فالشمسُ مشرقة فوقَ النخيل الأخضر، والتماسيح هانئة في الوحول تَرْقُب ما حولَها بكسل. رفقائي يصنعون لأنفسهم أعشاشاً في هياكل بعلبك. ألحمائم الهادلة تراقبهم. يجب عليَّ أن أتركك أيّها الأمير العزيز، ولكنَّني لن أنساك. في الربيع القادم أجلب لك معي مجوهرتين جميلتين بدلاً من المجوهرتين اللتين وزّعْتَ. ستكونان أشدّ احمراراً من الوردة الحمراء. وستكون الزمرّدة

زرقاءَ كالبحر الواسع.

ـ في الساحة، هناك، بنتٌ صغيرة تبيع علب الكبريت. سقطت العلب في الأقذار، فتَلِفتْ. والدُها سيضربها إذا لم تعد ببعض النقود إلى البيت. لذلك أراها تبكي. إنّها لا تلبس حذاءً ولا جورباً. رأسها الصغير عارٍ. إقلعْ عينيَ الأخرى، وأَعْطِها إيّاها لكي لا يضربَها والدها.

ـ حسناً. سأقضي معك هذه الليلةَ أيضاً. إنّما لا أستطيع أن أقلع عينك الثانية. ستصبح أعمى.

ـ أيُّها الطائر، أيّها الطائر، أيُّها الطائر الصغير! إفعلْ ما آمرُك به.

واقتلعت السنونوةُ عين الأمير الثانيةَ، واندفعت بها. ثمّ حوّمت بجانب بائعة الكبريت، ووضعت المجوهرة بيدها. وصرخت البنت الصغيرة وقد توقّفت دموعها:

ـ يا لها من زجاجة صغيرة جميلة!

وانطلقت نحو البيت وهي تضحك.

وعاد الطائر إلى الأمير، وقال له:

ـ لقد أصبحتَ الآن أعمى. لذلك سأبقى معك على الدَّوام.

فردَّ الأمير المسكين:

ـ كلاَّ أيُّها الطائر الصغير. يجب أن تذهب إلى البلاد الدافئة.

ـ سأبقى معك دائماً، قال الطائر. ونام عند قدمَي الأمير.

* * *

وفي اليوم التالي بقي الطائر على كتفَي الأمير، وهو يَروي له مشاهداتِه في بلدان أخرى. أخبره عن طيور الماء الحمراء التي تقف على ضفَّتَي نهر «النيل» وتلتقط الأسماك بمناقيدها؛ وعن «أبي الهول» القديم قِدَمَ العالم نفسه، العارفِ بكلِّ شيء؛ وعن رجال يسيرون بقوافلهم ببطء، أو يستريحون أثناء الحرِّ الشديد ويعبثون بسبَّحاتهم الثمينة. ثمَّ روى له أسطورة ملك جبال القمر، الأسودِ اللون، الذي يعبُد بلّورةً

كبيرة؛ وحكايَةَ الحيَّة الخضراء الكبيرة التي تنام في شجرة النخيل، حيثُ يقدِّم لها الكهَّانُ طعاماً شهيّاً؛ وقصّةَ الأقزام الذين يتنقَّلون فوق بحيرة كبيرة على أوراق مبسَّطة، ويقتتلون مع الفراشات.

عند ذاكَ قال الأمير:

ـ إنَّك، أيُّها الطائر الصغير العزيز، تخبرني عن أمور عجيبة رائعة، لكنَّ آلام الرجال والنساء هي أعجب من أيِّ شيء آخر. ليس كالبؤس لغزٌ! حلِّق فوق مدينتي أيُّها الطائر الصغير، وأخبرْني بما تراه فيها.

وحلَّق الطائر فوق المدينة العظيمة، فرأى الأغنياء يتنعَّمون في منازلهم الجميلة، بينما الشَّحَّاذون يجلِسون أمام أبواب هذه المنازل. وطار إلى الأزقَّة المُظلمة، ورأى وجوه الأطفال وقد ابيضَّت لشدَّة جوعهم وهم يُجيلون أبصارهم بفتور وكسل. وتحت قنطرةِ جسرٍ، في أحد الشوارع المعتمةِ، شهِد ولدين نائمين متعانقين، في محاولة منهما لاتِّقاء البرد، وهما يقولان: «كم نحن جائعان»! ولكنَّ الحارس صرخ بهما: «لا

تماما هنا »! فخرجا يمشيان تحت المطر.

وعاد الطائر إلى الأمير وأخبره بما شاهده. فقال الأمير:

- إنَّني مغطىًّ بقشرة رقيقة من الذهب. يجب عليك أن تنزعَها ورقةً ورقة، وأن توزِّعَها على فقراء المدينة. ألأحياءُ يحسبون دائماً أنَّ الذهب يمكن أن يجعلَهم سعداءَ.

وراح الطائر ينتزع الذهب ورقةً فورقة، إلى أن بات التمثال عارياً تماماً. ثمَّ راح يوزِّع هذه الورقاتِ، واحدةً بعد أخرى، على المساكين، فتورَّدت وجوه الأطفال، وأخذوا يضحكون ويلعبون في الشوارع وهم يهتفون: « عندنا الآنَ ما نأكله! »

* * *

وتساقطت الثلوج، وجاء الصَّقيع. وظهرت الشوارع كأنَّها مغطَّاةٌ بالفضَّة لشدَّة بريقها ولمعانها. وتدلَّت من سطوح المنازل قِطَعُ الثلج الطويلةُ الشبيهة بخناجرَ من بلّورٍ. وكان الجميع يرتدون الفِراءَ.

وأخذ الأولاد يلبسون القُبَعاتِ القرمزيَّة ويتزحلقون على الجليد.

أمَّا الطائر الصغير المسكين فكان يحسُّ بالصقيع أكثرَ فأكثر، لكنَّه كان يرفض أن يترك الأمير. كان حبُّه له كبيراً. وراح يلتقط فُتات الخبز من أمام باب الفرن حين لا يراه الخبَّاز. وكان يحاول أن يدفِّىء نفسه بالتَّصفيق بجناحَيه.

وأخيراً أحسَّ بأنَّه سيموت. إلاَّ أنَّ قوَّةً باقية فيه مكَّنته من أن يطير إلى كتفي الأمير، ثمَّ تمتم قائلاً:

- ألوداع أيُّها الأمير العزيز! أتأذن لي بتقبيل يدك؟

- إنَّني مسرور لأنَّك ستذهب إلى البلاد الدافئة، أيُّها الطائر الصغير. لقد بقيتَ معي وقتاً طويلاً. لكنْ يجب أن تقبِّلني في شفتيَّ لإنّني أحبُّك.

- لن أذهب إلى البلاد الدافئة. إنَّني مائت. ألموتُ أخو النوم، أليس كذلك؟

ثمَّ قبّلَ الأمير السعيد في شفتيه وسقط ميتاً على قدمَيه.

وفي تلك اللحظة صدر عن التمثال صوتٌ غريب كأنَّ شيئاً فيه قد انكسر. لقد انشقَّ قلبه المصنوعُ من الرصاص إلى قسمين. كان الصقيع شديداً جدّاً.

* * *

وفي الصباح الباكر كان رئيس بلديَّة المدينة يسير في الساحة بصحبة أعضاء المجلس. ومرُّوا بقرب القاعدة، فالتفت الرئيس إلى التمثال، وقال:

ـ ما هذا؟ كم يبدو الأمير السعيد قذراً وقبيحاً!

ـ كم هو قذر وقبيح حقّاً!، قال أعضاء المجلس الذين كانوا يردِّدون ما يقوله الرئيس دائماً. ثمَّ صعدوا إلى القاعدة لينظروا إليه.

قال الرئيس:

ـ لقد سقطت المجوهرة من سيفه. لقد زالت عيناه. لم يعد مذهَّباً. ألحقيقةُ أنّه بات كالمتسوّل.

ـ **كالمتسوّل!**، ردّد الأعضاءُ الآخرون.

ـ وهذا طائر ميتٌ على قدميه. ينبغي أن نُصدر قراراً نحظر فيه على العصافير أن تموت هنا.

ثم دوّن أمين السرّ الاقتراحَ.

... وأزالوا التمثال. وقال أستاذ الفنّ في الجامعة:

ـ لم يبقَ التمثال نافعاً لأنّه لم يعد جميلاً.

ثمَّ صهروا التمثال في فرن، وعقد الرئيس اجتماعاً للمجلس ليقرِّروا ما يفعلون بالمعدِن. وقال:

ـ لا بدَّ لنا من تمثالٍ آخرَ بالطبع. لكنَّه سيكون تمثالاً لي.

ـ لا بل لي، قال آخرُ.

ثمَّ اختصموا فيما بينهم.

وقال العمّال في المصهر:

ـ يا له من شيء غريب! هذا القلب الرصاصيّ المكسور لا يذوب في الفرن! يجب أن نرميَه!

ثمَّ رمَوه في كومةِ تراب حيث كان الطائر الميت

مَرْمِيّاً أيضاً.

* * *

ـ «إجلبْ لي أغلى شيئين في المدينة»، قال الله لأحد ملائكته.

فجلب له الملاك القلبَ المصنوع من رصاص، والعصفورَ الميت.

وقال الله:

ـ لقد أحسنتَ الاختيار. ففي جنّتي سيغرّدُ هذا العصفورُ الصغير أكثرَ فأكثر، وفي مدينتي الذهبيّةِ سيمجّدني هذا الأمير السعيد.

إذا نطق المجانين!

شابٌّ غَجَـريّ، بقُبّعته الأنيقة الغارقة في رأسه الأسود الشَّعر، يدخل بوّابةَ القصر راكباً حماراً حقيراً، وعلى شفتيه أغنيةٌ مرحة. ولعلّه كان اجتاز البوّابةَ من غير أن يُثيرَ أيَّ انتباه، أو أن يعترضَه أحدٌ، لولا أنَّ صوت غنائه، ونهيقَ حماره، لفتا إليه نظَرَ الحارس، فقال له:

ـ ماذا تريد؟ ألبابُ الخلفيُّ للشحّاذين!

وبصوت خجول، متواضع، وطَرْفَةِ عينٍ، ردَّ عليه الشابُّ:

ـ لستُ شحّاذاً. إنّني فنّـانٌ متجـوّل. أطـوف البلادَ، وأصنع رسوماً للسيّدات والسّادة في البيوت والقصور التي أمرُّ بها. لا ريبَ أنَّ سيّدك سمع بي. كثيرون يَتُوقون إلى خدماتي. غير أنّني لا أحيد عن طريقي. إنّني أذهب حيث أشاء، وأرسم حيث أمرّ.



وكان لكلام الشابِّ تأثيرٌ على الحارس. لا مجالَ للإنكار بأنَّ حالة الشابِّ تدلُّ على فقره، وهو يتنقّل على حماره. غير أنَّ الفنّانين غريبو الأطوار. هكذا سمع عنهم الحارسُ.

* * *

وما إن ربط الشابُّ الغجريّ حمارَه بوتدٍ بجانب البوّابة، حتىَّ قاده الحارس إلى سيِّد القصر. ولمّا وقف الفنّان بحضرته، رفع قبّعته تحيّةً له، وانحنى أمامَه بضعَ مرّاتٍ، إجلالاً له واحتراماً. ثمّ أخذ من حقيبةٍ بالية معلّقَةٍ في كتفه صورةً رائعةَ الجمال، مرسومةً بمنتهى البراعة والدقّة والرشاقة، مزيّنةً بخطوط دقيقة، ذاتَ ظلالٍ وأضواء أخّاذة ناعمة، حتى انَّ صاحب القصر بادره طالباً إليه أن يصنعَ رسماً له ولزوجته ولعائلته تأتي في روعة هذه الصورة.

ـ سَمْعاً وطاعةً يا سيِّدي. إنَّ ذلك ليُسعدني!

وكانت غبطة صاحب القصر عظيمةً، حتى إنّه أقام احتفالاً كبيراً دعا إليه رجال حاشيته للاجتماع

بضيف الشرفِ، أو الرسّام الجديد، في بَلاطه.

وعرض الشابُّ الصورةَ التي فتنت سيِّد القصر، فأثارت إعجاب الحاضرين جميعاً، فطلبوا منه أن يرسم لهم صورَهم أيضاً. ولكنَّ عددهم كان كبيراً بحيث أنَّ الوقت اللازمَ لتحقيق أمنيّاتهم جميعاً، فَرداً فرداً، لا بدَّ أن يستغرق سنواتٍ كثيرةً. عند ذاك قرّ رأي النبلاء على أن يصنع لهم الرسَّامُ صورةً واحدةً تضمُّهم مجتمعين. ووافق الشابُّ الغجريُّ على ذلك، فوجدوا في قَبوله مسايرةً لطيفة لهم.

وقام كلٌّ واحد منهم بدفع نصيبه من كلفة الصورة مقدَّماً. وتمَّ الاتِّفاقُ على أن تكون الجلسة الأُولى لبدء الرسم في صباح اليوم التالي.

وقبل أن يبدأ الرسَّام عمله، تحدَّث إليه عددٌ من النبلاء بُغيةَ لفتِ نظره إلى أمور معيَّنة. فقال نبيلٌ بدين كان مفرطَ الوَلَع بالطعام والشراب:

ـ تأكَّدْ وأنت ترسم لي صورتي أن تزيلَ عنّي بعض الشَّحْم الذي أحمله. إذا لم تفعل ذلك أمرتُ

رجالي بإعدامك.

وقالت امرأة عجوز، زوجةُ أحد النُّبلاء:

ـ منذ زمن غير بعيد كنتُ أجملَ فتاة في البلاد. شعري كان أسودَ كجَناح الغُراب، وبَشَرتي كانت بيضاءَ كالحليب. هكذا أريدك أن ترسمني. آمل أن لا تنسى ذلك!

وقال رجلٌ أصلع الرأس:

ـ منذ فترة وجيزة كان شعر رأسي كثيفاً، أشقرَ اللون، مجعَّداً. سأكون ممتنّاً لك إن أنت أَضَفْتَ ذلك إلى صورتي.

* * *

ولم يخشَ الشابُّ التهديدَ، ولم يُثِرْه الترغيبُ، لكنَّه أصرَّ على أن يقومَ بعمله وراء ستار كثيف، يحجبه عن النبلاء، بحيثُ لا يراه أحدٌ من الجالسين وراءه. وزعم أنَّه بذلك يستطيع أن يراهم على حقيقتهم. ثمَّ أصرَّ كذلك على أن لا يرى أحدٌ عملَه قبلَ إنجازه نهائيّاً.

وبعد ذلك راح النبلاء يجتمعون في قاعة فسيحة، خلفَ الستار، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر. كانوا لا يرون الرسّام وهو يعمل، لكنّه كان ينضمّ إليهم في مواعيدِ تناول الطعام. ولا شكّ أنّه تمتّع بمباهج الحياة معهم. غير أنّ المدّة طالت، حتى أخذ سيّدُ القصر يقلق...

وأخيراً أعلن الرسّام انتهاءَ عمله، وقبل أن يكونَ الاحتفالُ بإزاحة الستار عن الصورة في صبيحة اليوم التالي. وساد الصمتُ حين ظهر الرسّام من وراء الستار. ثمّ تكلّم فيهم قبل إزاحته:

ـ سيّداتي، سادتي. لقد آن أوانُ مشاهدةِ الصورة التي بذلتُ أقصى جهدي في صنعها. إنّني واثقٌ من أنّ جميع الطيّبين الذين يتحدّرون من أصول نبيلة سينظرون إلى عملي بتقدير واحترام. أمّا سواهم ممّن لا أصلَ لهم فلن يرَوا غيرَ جدارٍ لا رسمَ عليه.

وما كاد الشابُّ يُنهي كلمته الأخيرة حتى أزاح الستار.

وسادتهم الدهشةُ جميعاً حين لم يرَوا غيرَ جدار أبيضَ لا رسمَ عليه. أحسّوا بالخجل والخِزْي في قرارة نفوسهم. ولكنّ أحداً منهم لم يشأ أن يعترف بالواقع. ثمّ راح كلٌّ منهم يهتف بحماسة مشيراً إلى شبهه على الجدار، ويعرب عن رضاه التامّ عن صورته!

وفي ضجيج هذه الأصوات راح الرسّام يتّجه نحو باب القاعة، حيث لقيه مهرّج البلاط، وهو يضحك هازئاً، ويَثِب في الهواء، ويهزّ عصا علّق فيها أجراساً صغيرة ترنّ كلّما اهتزّت العصا، ويقول:

ـ لستُ من نسبٍ رفيع، لكنّني لست منافقاً. أؤكّد لك، وأُعلن على رؤوس الأشهاد، أنّني لا أرى غيرَ جدارٍ أبيضَ، لا صورةَ عليه أبداً!

فردّ عليه الشابُّ الغجريّ، وقد رقصت عيناه الساخرتان:

ـ إذا تكلّم المجانين، وجب أن يرحل الحكماء.

عند ذاك ركب الشابُّ الغجريُّ حماره، ووضع قبّعته على رأسه، وقد أخذت شرّابتُها تتراقص، ثمّ

خرج من القصر، ليعود إلى التنقُّل في طريقه بين قصرٍ وآخرَ، باحثاً عن حكمة جديدة.

حِكايةُ الزمّار

كان الراعي « فريد » يعيش في كوخه المنفردِ في جبل عالٍ . وكان لا يفتأُ يُعنى ببقراته في أيّام الصَّيف الدافئةِ الطويلة، أو في أيّام الشتاء الباردةِ القصيرة، ويعودُ في المساء إلى كوخه ويُعِدُّ عَشاءه، ثمّ ينظِّف الكوخ ويرتِّبه.

وفوقَ مدخل الكوخ كانت تتدلّى ضَمّةٌ من زَهَراتٍ حلوةٍ، يختار « فريد » كلَّ يومٍ واحدةً منها فيضعُها في قبَّعته الصغيرة المزركشَةَ المصنوعة من القشّ، ليدلِّلَ بذلك على قدرته على تسلُّق الجبال، إذ أنَّ الأقدامَ الضعيفةَ لم تكن تستطيعُ بلوغَ القِمَّة التي تنمو فيها هذه الزهراتُ الأنيقة.

وفي كلِّ مساء كان « فريد »، بعد أن يتناولَ عشاءه، وينظِّفَ كوخَه ويرتِّبَه، يعمد إلى تسلُّق القمَّة القائمة وراء الكوخ. هناك كان يجلِس بصبرٍ

وهدوء، ينتظر أن تُطلَّ عليه «فريدة»، حبيبتُه التي ينوي الزواجَ بها ذاتَ يوم. وكانت «فريدة» تسكن القمّةَ المقابلة عبرَ الوادي. وما إن تُطلَّ عليه «فريدة» حتى يلوِّحَ أحدُهما للآخر، تعبيراً عمّا يكنُّه من حبٍّ وإخلاص. حتّى إذا ما عادت «فريدة» إلى مسكنها بقي «فريد» وحدَه في موقعِه يَحلُمُ، ويُصغي إلى رنينِ أجراس أبقاره، إلى أن يكتملَ زَحْفُ الليلُ ببطئه المألوف ويَلفَّ الوادي بوشاحه.

وفي كلِّ صباح أيضاً كان «فريد» يتسلّق القمّةَ ليرى «فريدة» ويقول لها «صباح الخير»، قبل أن يبدأ عمله اليوميَّ... هكذا مرّت الأيّام والأسابيعُ والأشهر بانتظام متماثل تماماً، حتى كانت ذاتَ ليلة..

* * *

... في تلك الليلةِ أفاق «فريد» على أصواتٍ غريبة بدا له أنّها قادمةٌ من غرفة مجاورة. كانت أصواتَ رجال يتكلّمون بحرّيّة، ومن غير خوف، كأنّهم في منزلهم، لا أصواتَ همسٍ كتلك التي

تصدر عن اللصوص حين يتسلّلون إلى البيوت في الليل.

نهض «فريد» من سريره ببطءٍ وهدوء، وراح يسير على رؤوس أصابع قدمَيه، متجنّباً إحداثَ أيِّ صوت. ثمّ خرج من غرفة نومه إلى شرفةٍ على رأس الدرج، مطلّةٍ على قاعة فسيحة، حيث مصدرُ الأصوات الغريبة المريبة.

ونظر إلى القاعة الفسيحة. كان المشهد الذي رآه غريباً حقّاً! نارٌ تشتعل في موقِد، وعلى ضوء ألسنتها المتراقصةِ رأى ثلاثة رجال برؤوس صلْعاء، يرتدون ثياباً سوداء. أطولُهم كان يحرّك سائلاً يغلي في قِدْر كبيرة مدلاّة فوق النار، وثانيهم، وهو أقصرُ قامةً، يصبُّ حليباً في القِدْر، في حين كان ثالثهم، وهو الأقصر قامةً بين الثلاثة، يُلقمُ النار حطَباً.

ورأى «فريد» الرجلَ المديد القامة يُخرجُ زجاجةً صغيرة من جيبه، ويتفحّصها بدقّة، ثمّ يُفرغ ما فيها في قدر الحليب السّاخن. ثمّ شهِد الرجلَ المتوسّطَ القامة يتّجهُ نحو باب الكوخ، ويفتحه على مِصراعَيه،

ويأخذ شيئاً كالقَرْن الطويل، لم يسبق «لفريد» أن رأى مثلَه، ويضعُه في فمه، ويعزف نغماً لطيفاً محبَّباً تردَّد صداه في الأودية الهادئة المغمورة بضوء النجوم الساطع. وأحسَّ «فريد» أنَّ في هذه الموسيقى الناعمة سحراً، لا سيَّما وقد رأى أبقارَه تُقبل نحو الباب عند سَماع هذا النداءِ العازف، ثمَّ تتوقَّفُ عنده مُصغية للموسيقى الساحرة.

* * *

في هذه اللحظات كان الرجل القصير القامة منهمكاً بتحريك المزيج الغالي. ثمَّ راح، بعد حين، يردِّد بعض الألحان، وهو يأتي بثلاثة سطول ويملأها بالمزيج السائل. وهنا زادت دهشة «فريد» حين وجد لون الحليب يتغيَّر في السطول، فهو أحمرُ في أحدها، وأخضرُ في الثاني، بينما بقي أبيضَ في السطل الثالث.

وما إن انتهتْ هذه العمليَّة حتى التفت الرجل المديد القامة نحو «فريد»، من غير أن يبدوَ عليه أيُّ استغراب، كأنَّه كان عارفاً بوقوفه على الشرفة منذ البداية. وأومأ اليه بيده أن يأتي إليه.

وشعر «فريد» بالخوف من هؤلاء الرجال الذين دخلوا كوخه في هذا الليل للقيام بهذه الأعمال الغريبة. وخشيَ أن يكونوا قد نَوَوا به شرّاً.

وطال تردُّده لحظاتٍ. ونَفِد صبرُ الرجل المديد القامة، وأومأ إليه بيديه مرَّةً أخرى، بشيء من العنف، ممَّا حمل «فريد» على أن يتقدَّم نحوَه برغم خوفه. وما إن اقترب «فريد» حتى بادره الرجل بقوله:

ـ أنت يا «فريد» رجل لطيفٌ وقانع، تحبُّ هذه التِّلالَ، وتُعنى بأبقارك خيرَ عناية. لذلك جئنا هذه الليلةَ نضعك أمام الخيارات التالية. بوسعك أن تختارَ الشراب من أحد هذه السطول: إذا شربتَ ممَّا في السطل الأخضر اللون أصبحتَ عظيمَ الثَّراء؛ وإذا شربتَ ممَّا في السطل الأحمر اللون أصبحتَ قويّاً جبَّاراً؛ أمَّا إذا شربتَ ممَّا في السطل الأبيض فإنَّك ستكون قادراً على عزف الأنغام السحريَّة التي سمعتَها من أخي منذ لَحَظاتٍ. إخترْ أيَّ شراب تريد.



ولم يتردَّد « فريد » في الاختيار. فقد استولت النَّغَماتُ السحريَّة على لُبّه. وسرعانَ ما رفع السطلَ الأبيض اللون إلى شفتيَه، وشرب مِقداراً كبيراً من الحليب المُحَلّى.

ـ لقد أحسنت الاختيار يا « فريد ». فلو أنَّك اخترتَ اللون الأَخضرَ أو اللونَ الأَحمر، لقضيتَ على الفور. وكان لا بدَّ بعد ذلك من مرور مئات السنين قبل أن يُعرض على أبناء الجبال مثلُ هذا المزمار الرائع.

* * *

وما إن حاول « فريد » أن يتكلَّم حتى اختفى الرجال الثلاثة. غيرَ أنَّ المزمار بقي مُلقىً عند الباب إلى جانبه. ورفعه « فريد »، ووضعه في فمه، ثمَّ نفخ فيه. وكم كانت بهجته عظيمةً حين صدرت عنه تلك الأَنغامُ السحريَّة التي تحرِّك القلب، وتردَّدت أَصداؤها فوق رؤوس الجبال المضيئة.

وسرعان ما صنع « فريد » مزماراً آخرَ، شبيهاً

بذلك المزمار، وقدّمه إلى « فريدة ». ثمّ راح كلّ منهما يعزف للآخر على مزماره من قمّته. ولمّا تزوّجا راح أبناؤهما وأحفادهما يتعلّمون العزفَ على المزمار الساحر.

هكذا وُجد المزمار... وهكذا كان عزفه الذي لا يزال صداه يتردّد في الأودية.

الأسئلة

١ - الحبّ والربيع.

١ - كيف كانت حال الأولاد قبل عودة صاحب الحديقة من سفره؟ وكيف أصبحت بعد عودته؟

٢ - لماذا لم يدخل الربيع حديقة الرجل الأنانيّ؟ صف حالة هذه الحديقة.

٣ - ماذا سمع الرجل وهو مستلق في فراشه؟ وماذا رأى لما نظر الى الخارج؟

٤ - لماذا بقيت شجرة واحدة في الحديقة مغطّاة بالثلج؟ من كان يقف تحتها؟ كيف كانت حاله؟

٥ - كيف انتقل الرجل من الأنانيّة إلى الحبّ؟ وما كانت نتيجة هذا التغيّر؟

٢ - ألنّور الأزرق.

١ - لماذا خرج الجنديُّ إلى الغابة؟ وماذا رأى؟

٢ - ما هي الشروط الثلاثة التي وضعتها العجوزُ للجنديّ لتسمح له بالمبيت في منزلها؟

٣ - هل فطن الجنديّ لشرّ العجوز وهو في البئر؟ ماذا فعل؟ وما كانت النتيجة؟

٤ ـ ماذا جرى بعد ما أشعل الجنديُّ غليونه بالضوء الأزرق؟

٥ ـ هل كان القزم صالحاً؟ ما هي الخدمات التي أدّاها إلى الجنديّ؟

٦ ـ كيف انتقم الجنديُّ لنفسه من قسوة الملك؟ وهل نجحت خطّته؟ كيف؟

٧ ـ كيف نجا الجنديّ من الموت؟

٣ ـ ملكةٌ تتسلّى!

١ ـ لماذا قُتل الكثيرون من الشُّبّان الراغبين في الزواج بابنة الملكة الشرّيرة؟

٢ ـ لماذا وافق الوالد في النهاية على رغبة ابنه؟

٣ ـ بماذا كان يمتاز كلٌّ من الرجال الستّة الذين رافقوا الشابّ إلى قصر الملكة؟

٤ ـ ما هي المطالب التي تقدّمت بها الملكة من الشابّ الخاطب؟ تكلّم بالتفصيل على واحد منها واذكر كيف استطاع الشابّ أن ينجح فيه.

٥ ـ لماذا حمل الشابُّ زوجتَه الأميرة إلى القرية؟

٤ ـ الأمير السعيد.

١ ـ ماذا كان أهل المدينة يقولون عن التمثال؟

٢ ـ لماذا بقيت السنونوة وحيدة بعد ما رحلت صديقاتها؟ وهل رضيت طويلاً بالبقاء حيث كانت؟ لماذا؟

٣ ـ من هم الأشخاص الذين ساعدهم الأمير السعيد بوساطة السنونوة؟ وكيف ساعدهم؟

٤ ـ هل غادرت السنونوة الأميرَ السعيد؟ لماذا؟

٥ ـ تحدَّث عن مصير السنونوة ومصير الأمير السعيد.

٦ ـ ما هي العِبَر التي استَفَدْتَها من تصرُّفات الأمير السعيد وأقواله؟

٥ ـ إذا نطق المجانين!

١ ـ صف الشابَّ الغجريّ.

٢ ـ ماذا طلب بعض النبلاء من الغجريّ قبل رسم صورتهم؟ على ماذا تدلُّك هذه المطالب؟

٣ ـ ماذا قال الغجريّ للنبلاء قبل الكشف عن الصورة؟

٤ ـ ماذا رأى النبلاء في الصورة؟ وماذا قالوا؟ لماذا؟

٥ ـ ماذا قال مهرِّج البلاط؟ وإلى ماذا يرمز قوله؟

٦ ـ حكاية المزمار.

١ ـ ماذا كان «فريد» يضع في قبّعته؟ لماذا؟

٢ ـ ماذا كان «فريد» يفعل بعد أن يتناول عشاءه، وقبل أن يبدأ عمله في الصَّباح؟

٣ ـ ماذا سمع «فريد» في اللَّيل؟ وماذا رأى في القاعة الفسيحة؟ ماذا كان يفعل كلٌّ من الرِّجال الثلاثة؟

٤ ـ كيف أثّر النغم اللطيف على الحيوانات؟ وهل هذا طبيعيٌّ؟

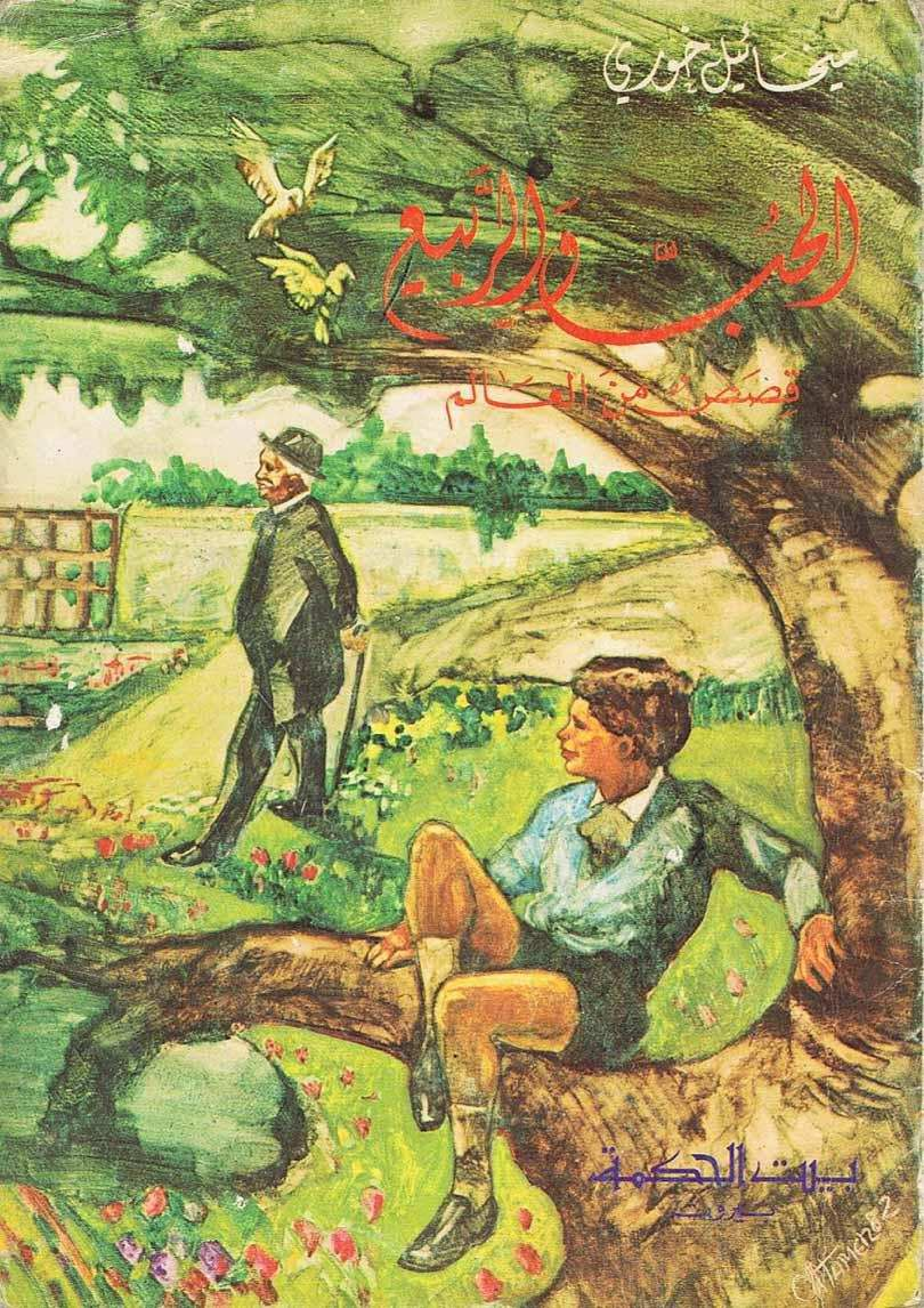
٥ ـ بماذا خيَّر الرجل «فريداً»؟ وماذا اختار «فريد» في النهاية؟

٦ ـ كيف حصل «فريد» على المزمار؟ وكيف أصبح المزمار آلة منتشرة؟

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣
على مطابع دار غنـدور ش.م.م.
بـيروت

١٩٨٣ - ١/١٧١



ميخائيل خوري
الحب والربيع
قصص من العالم
بيت الحكمة
بيروت